

سميرة عزام

بقلم أبي سلمى

ان اتحاد الكتاب الفلسطينيين الذي فقد بغياب سميرة عزام عن الساحة ، ركنا من أركانه ومناضلة فلسطينية كانت حامية الراية في الميدان ، ليعز عليه أن يفقد هذه الفارسة في هذا الوقت بالذات . هذا الوقت الذي نحن فيه بحاجة ماسة الى التضال الدامي أكثر من اي وقت مضى ، في وقت يحفي فلسطين كل فلسطين ، وراء الظلم ، فنخيلج الفرسان وتتلجج الانسنة وتذوب الكرامات وتقيب المروءات وتتحاذل الرقاب وينخلع الركا بولا يلوح مسن وراء الحدود الا ظلال الشرف المتلوم .

غابت صاحبة القلم المشرع أبداً ، الشامخة المتحدية في وقت ركع فيه أشباه الرجال خوفاً من المعركة وسيوفهم ملقاة على الرمال خجلة في اغمادها .

ان الكاتب الحر لا يموت الا وافقا في الساحة مثل قلمه الحبر يتحطم ولا ينحني أمام العاصفة .

كنت مع سميرة عزام وبعض الاصدقاء في آخر جلسة معها ، على شرفة بيت صديق في أعلى الجبل ، وأخذنا نتحدث عن النكبة الكبرى وأبدت رغبتها في الذهاب الى عمان لترى شظايا الامل الذين نحبههم وتستنشق رياح فلسطين انهابة من فوق الجسر المنكسر على الأردن الباكي ، وترى أرض فلسطين المشجبة بافدام بنينا مشردين .

ثم جاءني النبا الفاجع بأن سميرة عزام سقطت وهي في طريقها الى النهر الباكي والجسر المنكسر والأرض المجرحة ، لقد ناء القلب الكبير الذي حمل الوطن المتخن فوق في منتصف الطريق . كانت سميرة عزام قبل الفاجعة الاخيرة مجتحة بالامل كانت مثل شجرة اللوز التي كتبت عنها تقول :

وحدثوني بأن الشجرة العريانة ، الشجرة التي كانت مظلمة لفرط ما تزهو ، لم تهو ، فثمة جذور لها في أرض أصيلة ، وقد سألوها لماذا لا تتسريل بالخضرة لتكون لها هوية الشجرة أو تموت ، فقالت : افسحت ان يتعقد وعدي الا لليونهم ، هؤلاء الذين باعدت بيني وبينهم ايام فما اطعم ابدا الا اليد التي جعلتني يوما موصولة باسباب الحياة .

بالاسم - تقول سميرة عزام - تمثلت لي شجرة اللوز في حلم فما رأيته لباسا لانها اشاعت كل نجيماتا البيض كمن في عيسد ، وخلصني اسمها تقول سيمودون واعدود شجرة لها كرامات الشجر في حديقة ربيع فلسطين .

هكذا قالت سميرة عزام منذ مدة قبل الفاجعة الاخيرة ، فلمسا انجلي الحلم عن بقطة مربعة ، ولم يعد لربيع فلسطين عودة قريبة ، يست الجذور في الارض الاصيلة ، وماتت شجرة اللوز عندما انقطعت اسباب الامل والحياة ، ولم تعد تشيع النجمات البيض . وهكذا انطفأت سميرة عزام .

وبعد - لقد جئنا هنا في هذا اليوم لا لنبكي على امواتنا ، وانما لنبكي على احيائنا الاموات .

ابو سلمى

كانت الامل تنوهج مع اطلالة الفجر على جبال الجليل في اوائل سنة ١٩٤٨ ، وكانت الاشعة تنعكس على الوجوه العربية في تلك السفوح ، ومن بين تلك الوجوه العريبات الصباح كان رجال من سورية العربية توافدوا من شتى الارحاء الى وطن العرب فلسطين ، ليعتق العرق والدم في التراب المقدس ، مألهم مجيء تلك العصبة المؤمنة، فلسطين كلها ، وتداعت سيدات عكا وفتيانها فيمن دعاسى الى الترحيب بالمجاهدين ، وبرعن لهم بمصاحف وكتب وكنسرات صوف نسجتها ايديهن الكريمة لتقيهم عائلة البرد في ذرى الجبال . وكان نصيبهم أحدهم وهو الضابط الباسل فنجي الاناسي كنزة صوف جد في جيبتها ورقة كتب عليها :

سيروا على وضح النهار فالحق من نور ونار

والوقيع : سميرة عزام .

لبس الفارس كنزة الصوف المنسوجة بخيوط نور العيون والامل لبسها ممثرا كالدرع الواقية في المعارك .

وكان فتحى الاناسي من اولئك الميامين الذين وضعوا أرواحهم على اكفهم في الميادين ، وما هي الا جولة حتى ترجل القائد الشجاع وسقط شهيداً على نرى فلسطين ، وهو يلبس كنزة الصوف التي نسجتها ابنة فلسطين « سميرة عزام » للفارس العربي المجهول .

من ذلك اليوم عرفت أي قلب كبير تحمله سميرة عزام ، ولما حلت النكبة عرفت أية جراح يحملها ذلك القلب ، وانني لاشفق على الكاتب الذي يخرج الحرف محترقا من قلبه ، فما بالك اذا كان ذلك الكاتب يعيش مأساة شعبية برمتها .

وهكذا حملت سميرة عزام وطنها المتخن في قلبها الكبير ونقلت غربة في الوطن العربي الكبير تحمل الحرف العربي الامل أبناء شعبها جميعهم وامالهم . وكان حرفها يخفق خفقات النجم في وطنها وينقل الى الديار الغربية عبر البرتقال وشذا التراب الحبيب . وهكذا لمع حرف سميرة عزام شهابا في الافق العربي ، وهكذا سطع نجمها ، ما ارتفع نجمها الا على الصدق في العاطفة والاخلاص في التعبير ، ما لمع حرفها الا على الصورة النابضة بحياة الشعب ، شعبها الفلسطيني المشرد ، فكان حرفها مثلها ، مثل شعبها ، ما زادتهم النكبة الا صفاء جوهر ، وما زادهم اللهب الا طيب عنصر .

كان أغزر ينوع تستقي منه سميرة عزام هو شعبها ووطنها وقلبها . كانت تعتمد على الشعب والوطن والقلب في صورها ، ولم تعتمد كما اعتمد غيرها على أصباغ المراهقة والوان الجنس . . فمحت الرياح والامطار صورهن الباهتة ، وازدادت صورها تألقا وخلودا .

لا أدري اذا كانت هنالك فاصلة عربية تجاري سميرة عزام في فصصها الرائعة ، اشراقه عبارة ، وسمو فكرة ، ووضوح لوحة ، ورشاقة ريشة ، وحرارة عاطفة ، ورهافة احساس .

نقلت طوال عشرين عاما كما تقلب قومها على اللظى ، وعاشت المأساة كما عاش أهلها ، وعصف بها الظلم كما عصف بشعبها ، فأيسة فاصلة عربية تمسرت بهذه التجارب الداميات حتى تستطيع أن تعبر عن نكبة الشعب كما استطاعت سميرة عزام .